سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة ، وهما قوله عز وجل : ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾ إلى آخرهما .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر تلك آيات الكتاب﴾ تقدّم القول فيها. ﴿والذي أنزل إليك﴾ يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك. ﴿من ربك الحق﴾ لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، واعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال المشركون: إن محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه. «والذي» في موضع رفع عطفاً على ﴿آيات﴾ أو على الابتداء، و﴿الحق﴾ خبره؛ ويجوز أن يكون موضعه جراً على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، وارتفاع ﴿الحق﴾ على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحق؛ كقوله تعالى: ﴿وهم يعلمون الحق﴾ [البقرة: ٧٥] يعني ذلك الحقّ. قال الفرّاء: وإن شئت جعلت ﴿الذي﴾ خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق؛ ومنه قول الشاعر:

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْث الكَتيبَة في المُزْدحم

يريد: إلى الملك القَرْمِ بن الهمام، ليثِ الكَتيبة. ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ الآية. لمّا بيّن تعالى أن القرآن حقّ، بين أن مَن أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدّم هذا المعنى. وفي قوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ قولان: أحدهما: أنها مرفوعة بغير عمد ترونها(١)؛ قاله قَتادة وإيّاس بن معاوية وغيرهما. الثاني: لها عمد، ولكنا لا نراه(٢)؛ قال ابن عباس: لها عمد على جبل قاف(٣)؛ ويمكن أن يقال على هذا القول: العمد قدرته التي يُمسك بها السموات والأرض، وهي غير مرئية لنا؛ ذكره الزّجاج. وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر

---

(١) صحيح إليهما : الطبري (١٣/ ٩٧) .

(٢) صحيح إليه : الطبري (١٣/ ٩٦) وعبد الرزاق (١/ ٣٣١) .

(٣) باطل ولا يصح : لعدم صحة أسطورة جبل قاف المزعومة ، وانظر المحرر الوجيز (٨/ ١٠٨) لابن عطية وضعفه .

الكافر؛ ذكره الغَزْنَويّ(١). والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة:

وخَيِّسِ الجِنِّ إني قد أَذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدّم الكلام فيه(٢). ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذَلَّلَهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلّل للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التي عندها تُكوّر الشمس، ويُخسَف القمر، وتنكدر النّجوم، وتنتثر الكواكب. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمّى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها(٣). وقيل: معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فَلَكه في شهر، والشمس في سنة. ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي يُبيّنها؛ أي من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ لمّا بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض؛ أي بسط الأرض طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت؛ واحدها راسية؛ لأن الأرض ترسو بها، أي تثبت؛ والإرساء الثّبوت؛ قال عَنْتَرَة:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُرَّةً تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ

وقال جميل:

أُحِبُّها والذي أَرْسَى قواعِدَهُ حُبّا إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء: أوّل جبل وُضع على الأرض أبو قُبَيس(٤)

مسألة: في هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة(٥)، وردّ على من زعم أن الأرض تهوي أبوابها عليها؛ وزعم ابن الرّاوندي أن تحت الأرض جسماً صَعّاداً كالرِّيح الصعّادة؛ وهي منحدرة فاعتدل الهاوي والصعادي في الجِرْم والقوّة فتوافقا. وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعد، فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها(٦).

---

(١) وهو بعيد جداً ولا أراه يصح أبداً .

(٢) وهو استواء معلوم يليق بكماله وجلاله سبحانه ، كيفه مجهول ، والسؤال عنه بدعة والله أعلم وانظر الآية (٥٤) من سورة الأعراف .

(٣) الله وحده أعلم بصحة هذا ، ورواه أبو حيان (٥/ ٣٦٠) في البحر المحيط .

(٤) إنما هو عن عطاء كما عند ابن أبي شيبة (١٤/ ٩١) في المصنف ، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢١٨) .

(٥) رحم الله المصنف فقد أثبت العلماء بما لا يدع مجالا للشك أن الأرض كروية أو (بيضاوية) .

(٦) رحم الله المصنف فقد سوّد الصفحة هنا بهذه الكلمات من ابن الراوندي الملحد المدعي للنبوة عليه من الله ما يستحق ، وليس في آيات ربنا هنا ولا في غيرها ما يثبت ذلك ، ثم حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس وهو ما أثبته العلم الحديث لا غيره ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي مياهاً جارية في الأرض، فيها منافع الخلق. ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ بمعنى صنفين. قال أبو عبيدة: الزوج واحد، ويكون اثنين. الفراء: يعني بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى؛ وهذا خلاف النص. وقيل: معنى ﴿زَوْجَيْنِ﴾ نوعان، كالحُلْو والحامض، والرطب واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات وعلامات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ في الكلام حذف؛ المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والمعنى وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي قُرًى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثّمار والتّمر؛ فيكون البعض حُلْواً، والبعض حامضاً؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدلّ دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته؛ فإنه نَبَّهَ سبحانه بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع؛ فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته؛ جلّ وعزّ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوّاً كبيراً.

الثالثة: ذهبت الكفرة لعنهم الله إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وادّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً؛ والدليل على أن الحادث لا بدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه في وقت آخر؛ فلو كان حدوثه في وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث في وقته كل ما هو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل مُخصِّص خَصَّصه به، ولولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ واستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ قرأ الحسن «وَجَنَّاتٍ» بكسر التاء، على التقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل

على «كل» التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات. الباقون: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع. ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجنات؛ أي على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقاً على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفاً على «كُلّ» حسب ما تقدّم في ﴿وَجَنَّاتٌ﴾. وقرأ مجاهد والسُّلَميّ وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لغتان؛ وهما جمع صِنْو، وهي النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهن أصلٌ واحد، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلاً؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنو: وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال: الصِّنْوان المجتمع، وغير الصِّنْوان المتفرق[1]؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان. والصِّنْو المِثل؛ ومنه قول النبي ﷺ: «عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه[2]». ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العلمُ والحلمُ خُلَّتَا كَرَمٍ ... للمرءِ زَيْنٌ إذا هُمَا اجْتَمَعَا
صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسْنُهُمَا ... إلاَّ بجمعِ ذا وذاكَ مَعَا

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاريّ. وقرأ عاصم وابن عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي يُسقى ذلك كله. وقرأ الباقون بالتاء، لقوله: «جَنَّاتٌ» واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة؛ قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن؛ لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ولم يقل بعضه. وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما «وَيُفَضِّلُ» بالياء ردّاً على قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾ و﴿يُغْشِي﴾ الباقون بالنون على معنى: ونحن نفضل. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول لعليّ رضي الله عنه: «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبي ﷺ ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾[3] و﴿الْأُكُلِ﴾ الثمر. قال ابن عباس: يعني الحلو والحامض والفارسيّ والدّقَل[4]. وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الفارسي والدَّقَل والحُلْو والحامض»[5] ذكره الثعلبيّ. قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر:

الناسُ كالنَّبتِ والنَّبْتُ ألوان ... منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان

---

(١) صحيح.
(٢) صحيح لغيره: الترمذي (٣٧٥٨) في المناقب وصححه الألباني هناك لغيره.
(٣) ضعيف: الحاكم (٢/ ٢٤١) في المستدرك وضعفه الذهبي فقال: هارون هالك، وزاد السيوطي (٨/ ٣٦٩) في الدر عزوه لابن مردويه في تفسيره عن جابر رضي الله عنهما.
(٤) حسن: الطبري (١٣/ ١٠٠) من طريق سعيد بن جبير فيه.
(٥) ضعيف: الطبري (١٣/ ١٠٦) الترمذي (٣١٠٧) في التفسير وضعفه الألباني وذكره ابن الجوزي (٢/ ١٠٩٢) في العلل.

ومنها شجر يَنضحُ طول الدّهرِ قطران

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لا يتَعجَّب، ولا يجوز عليه التعجّب؛ لأنه تَغيُّر النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذَكَر ذلك ليتعجّب منه نَبيُّه والمؤمنون. وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السموات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء. وقيل: الآية في منكري الصانع[1]؛ أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب؛ ونظم الآية يدلّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أي أنبعث إذا كنا تراباً؟. ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقرئ «إِنَّا». ﴿ الْأَغْلَالُ ﴾ جمع غلّ؛ وهو طَوْق تشد به اليد إلى العُنُق، أي يُغلّون يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ [غافر: ٧١] إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٢]. وقيل: الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل: هو قولهم: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية[2]؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: ﴿ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات. و﴿الْمَثُلَاتُ ﴾ العقوبات؛ الواحدة مَثُلَة. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ «المُثْلَات» بضم الميم وإسكان الثاء؛ وهذا جمع مُثْلَة، ويجوز «المَثْلَات» تبدل من الضمة فتحة لثقلها، وقيل: يُؤْتى بالفتحة عوَضاً من الهاء. وروي عن الأعمش أنه قرأ «الْمَثْلَات» بفتح الميم وإسكان الثاء؛ فهذا جمع مُثْلة، ثم حَذف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله. وعلى قراءة الجماعة واحدة مَثُلة، نحو صَدُقة وصُدُقَة؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعاً، واحدها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفة وغُرُفات؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلا، بفتح الميم وسكون الثاء. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذو تجاوز عن المشركين إذا

---

(١) هذا الاسم لم أره يثبت لله تعالى عند إمام معتبر موثق ، والله أعلم .

(٢) حسن : الطبري (١٣/١٠٨) في تفسيره .

آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصروا على الكفر. وروى حماد بن سلمة عن علي ابن زيد عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هَنَأَ أحداً عيشٌ ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتَّكَل كل أحد»[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي مُعْلِم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي نبيّ يدعوهم إلى الله[٢]. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة «الأنعام» أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لا شريك له؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس»[٣] الحديث. وفيه «لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله»[٤]. واختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقال قَتَادة: المعنى ما تُسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة[٥]؛ وكذلك قال ابن عباس. وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص[٦]؛ وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه[٧]. وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها. وقيل: الغيض انقطاع دم الحيض. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بدم النفاس بعد الوضع.

الثانية: في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض؛ وبه قال أبو حنيفة؛ ودليله الآية. قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عِكْرِمة[٨] ومجاهد؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حِضْن أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع؛ قاله ابن القصّار. وذكر أن رجلين تنازعا ولداً، فترافعا إلى عمر رضي الله

---

(١) مرسل ضعيف: سعيد بن المسيب تابعي جليل، وعلي بن زيد بن جدعان له مناكير، والله أعلم.
(٢) وهو الصواب إن شاء الله تعالى.
(٣ـ٤) صحيح: البخاري (٤٦٩٧) في التفسير منفرداً به عن مسلم.
(٥) حسن: الطبري (١٣/ ١١٥) في تفسيره.
(٦ـ٨) الطبري (١٣/ ١١٣ـ١١٥) بعدة أسانيد.

عنه فعرضه على القَافَة، فـألحقه القَافَة بهما، فَعَلاه عمر بالـدرة، وسأل نسوة من قريش فقال: انظُرْن ما شـأن هذا الولد؟ فـقلن: إن الأوّل خلا بهـا وخلاّها، فـحاضت على الحـمل، فظنّت أن عدّتـها انقضت؛ فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني؛ فـقال عمر: الله أكبر وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض، ولا قـال ذلك أحد من الصحابة؛ فدلّ أنه إجمـاع، والله أعلم. احتجّ المخالف بأن قال: لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صَحّ استبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع. ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسـعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر.

الرابعة: وهذه الستة الأشهر هي بالأهلّة كسـائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب ابن حـارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ وحكاه ابن عطية.

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُـرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قـدر ما يتحوّل ظِل المِغزَل؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي[1]. وقالت جَميلة بنت سعد أخت عـبيد بن سعـد، وعن الليث بن سعد: إن أكثره ثلاث سنـين. وعن الشافعي أربع سنين؛ وروي عن مالك في إحـدى روايتيه، والمشهور عنه خـمس سنين؛ وروي عنه لا حدّ له، ولو زاد على العشـرة الأعوام؛ وهي الرواية الثـالثة عنه. وعن الزّهري ست وسـبع. قال أبو عـمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سـبع؛ والشافعي: مُدَّةُ الغاية منها أربع سنين. والكوفـيون يقولون: سنتان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها. قال أبو عمـر: وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرّد إلى مـا عُرف من أمر النّساء وبالله التوفـيق. رَوى الدَّارَقُطْنِيّ عن الوليد بن مسلم قـال: قلت لمالك بن أنس إني حدّثت عن عائشـة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملهـا على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل، فقال: سبـحان الله مَن يقول هذا؟ هذه جارتنا امرأة مـحمد بن عَجْـلاَن، تحمل وتضع في أربع سنين، امرأة صدق، وزوجـها رجل صدق؛ حملت ثلاث أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين[2]. وذكره عن المبارك ابنُ مجاهد قال: مشهور عنـدنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمـل وتضع في أربع سنين، وكانت تسمى حاملة الفيل. وروي أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصـبحت في كرب شديد؛ فغضب مالك وأطبـق المصحف ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنّا أنبـياء ثم قرأ، ثم دعا، ثم قـال: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فـأخرجه

ضعيف: الدارقطني (٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٢) في سننه، والبيهقي (٧/ ٤٤٣) في سننه الكبرى وفيه (جميلة بنت سعد) وهي مجهولة الحال فقد ذكرها أبو حاتم (٥/ ٤٠٧) في الجرح والتعديل وسكت عنها، ثم عنعنه ابن جريج وهو مدلس.

(٢) انظر السابق.

عنها الساعـة، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها بهـا غلاماً، فإنك تَمْحُو مـا تشاء وتُثْبِت، وعندك أمّ الكتـاب، ورفع مالك يده، ورفـع الناس أيديهم، وجاء الرسـول إلى الرجل فـقال: أدرك امـرأتك، فذهب الرجل؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجـد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعت سراره[١]؛ ورُوي أيضاً أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إني غبت عن امرأتي سنتين فجئت وهي حبلى؛ فشاور عمر الناس في رجمها، فقـال معاذ بن جبل: يا أمـير المؤمنين إن كان لك عليـها سبـيل فليس لك على ما في بطنها سـبيل؛ فاتركها حتى تضع، فتركها، فوضعت غلامـاً قد خرجت ثنيتاه؛ فعرف الرجل الشبه فقال: ابني وربّ الكعبة فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ؛ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقـد خرجت سِنّي. ويذكر عن مالك أنه حمل به في بطن أُمه سنتين، وقيل: ثلاث سـنين. ويقال: إن محمد بن عجـلان مكث في بطن أُمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حمّاد بن سلمة: إنما سمي هَرِم بن حـيان هَرِماً لأنه بقي فـي بطن أُمه أربع سنين[٢]. وذكر الغَزْنَوي أن الـضحّاك وُلد لسنتين[٣]، وقد طلعت سِنّه فُسمّي ضحّاكاً. عبّاد بن العوّام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاماً شعره إلى منكبيه، فمرّ به طير فقال: كش.

السادسة: قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهـاد؛ لأن علم ذلك استأثر اللـه به، فـلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقَدْرِ مـا أظهره لنا، ووُجد ظاهراً في النساء نادراً أو مـعتاداً؛ ولمّا وجدنا امرأة قد حـملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك، والنفاس والحيض لَمّا لم نجد فيه أمراً مستقراً رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنّ.

السابعة: قال ابن العربي[٤]: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالـكيّ، وهم الطبائعيـون الذين يزعمون أن مدبّـر الحمل في الرَّحِم الكواكب السبـعة؛ تأخذه شـهراً شهـراً، ويكون الشهر الرابع منهـا للشمس؛ ولذلك يتـحرّك ويضطرب، وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِلـه بِبَرْده؛ فيا لـيتني تمكنت من مناظرتهم أو مقاتـلتهم ما بال المرجع بعد تمام الدّور يكون إلى زُحـل دون غيره؟ آللـه أخبركم بهذا أم على اللـه تفترون؟ وإذا جاز أن يـعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعودِ التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مـرتين أو ثلاثاً؟ ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة.

الثامنة: قولـه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ قـدر خـروج الولد من بطن أمّـه، وقَـدْر مكثـه في بطنهـا إلى خـروجه. وقـال قَـتَـادة: في الرزق

---

(١) الدارقطني (٣/ ٣٢٢ـ٣٢٣) في سننه والقطط : شديد الجعودة .

(٢ـ٣) البحر المحيط (٥/ ٣٦٩) .

(٤) أحكام القرآن (٣/ ١١٠٩) لابن العربي المالكي .

والأجل[١]. والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم.

قلت: هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعالى بها بأنه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا: إنها تجربة تُركوا وما هم عليه، ولم يَقدَح ذلك في الممدوح؛ فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدّله. و﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقَهْره؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ إسرار القول: ما حدَّث به المرءُ نفسه، والجهر ما حدَّث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر. ﴿وَمِنْكُم﴾ يحتمل أن يكون وصفاً لـ﴿سَوَاءٌ﴾ التقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ وَجَهْرُ مَن جَهَر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق بـ﴿سَوَاءٌ﴾على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررت بزيد. ويجوز أن يكون على تقدير: سِر من أَسَرّ منكم وجَهْـر من جَهَر منكم. ويجوز أن يكون التقدير: ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل. وقيل: ﴿سَوَاءٌ﴾ أي مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي يستوي في علم الله السرّ والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات. وقال الأخفش وقُطْرُب: المستخفي بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أي أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أي استخرجته؛ ومنه قيل لِلنَّبَّاشِ: المختفي. وقال امرؤ القيس:

خفاهُنّ مِن أَنفاقِهِن كأنَّما ... خفاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشيٍّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتواري، أي الداخل سَرَباً؛ ومنه قولهم: انسَرَب الوحشيّ إذا دخل في كِنّاسه. وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ مستتر، ﴿وَسَارِبٌ﴾ ظاهر[٢]. مجاهد: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ بالمعاصي، ﴿وَسَارِبٌ﴾ ظاهر[٣]. وقيل: معنى ﴿وَسَارِبٌ﴾ ذاهب؛ قال الكسائي: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَباً وسُرُوباً إذا ذهب؛ وقال الشاعر:

وكُلُّ أناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ... ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبٌ

أي ذاهب. وقال أبو رجاء: السّارب الذاهب على وجهه في الأرض؛ قال الشاعر:

أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ

---

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٣/١١٦) في تفسيره.

(٢) ضعيف: فيه العوفيون عن ابن عباس وسندهم مليءٌ بالجهالة والضعف وفيه ابن جريج عن ابن عباس وفيه انقطاع، الطبري (١٣/١١٧).

(٣) صحيح إليه: السابق/ نفسه.

وقال القُتَبيّ: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي منصرف في حوائجه بسرعة؛ من قولهم: انْسَرَب الماء. وقال الأصمعيّ: خَلِّ سِرْبَه أي طريقه.

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: ﴿ مُعَقِّبَاتٌ﴾ والملائكة ذُكْرَان لأنه جمع مُعَقِّبة، يقال: مَلَك مُعَقِّب، وملائكة مُعَقِّبة، ثم مُعَقِّبات جمع الجمع. وقرأ بعضهم «لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ». ومعاقيب جمع مُعْقِب؛ وقيل للملائكة: معقّبة على لفظ الملائكة. وقيل: أنّث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسّابة وعلاّمة وراوية؛ قاله الجوهري وغيره. والتّعقب العود بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠] أي لم يَرجع؛ وفي الحديث: «مُعَقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قَائِلُهُنّ أو فاعلُهنّ» فذكر التسبيح والتحميد والتكبير[١]. قال أبو الهيثم: سُمّين ﴿ مُعَقِّبَاتٌ﴾ لأنهن عادت مرّة بعد مرّة، فعْل من عَمِل عَملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ. والمعقّبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المعترِكات على الحوض؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى. وقوله: ﴿ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي المستخفي بالليل والسارب بالنهار. ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في هذا الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرّة، لطفا منه به، فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه[٢]؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي فقال: احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك؛ فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه ما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليّا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصن حصينة[٣]؛ وعلى هذا، ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي بأمر الله وبإذنه؛ فـ﴿ مِنْ﴾ بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل: ﴿ مِنْ﴾ بمعنى «عن» أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأوّل، أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم؛ وهذا قول الحسن[٤]؛ تقول: كسوته عن عري ومن عرى؛ ومنه قوله عز وجل: ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب حتى لا تحل به عقوبة. لأن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يُغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة، وتزول عنهم الحفظة المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجنّ قال كعب: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطّفتكم الجن[٥]. وملائكة العذاب من أمر الله؛ وخصهم بأن

(١) صحيح: مسلم (٥٩٦) في المساجد ومواضع الصلاة عن كعب بن عجرة رضي الله عنه.
(٢) فيه سماك عن عكرمة عن ابن عباس وفيه اضطراب، رواه الطبري (١٣/ ١١٩).
(٣) وقول علي عند ابن جرير (١٣/ ١٢٣).
(٤) السابق (١٣/ ١٢٢).
(٥) كذا عند الطبري (١٣/ ١٢٣).

قال: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ لأنهم غير معانين؛ كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي ليس مما تشاهدونه أنتم. وقال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره، له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه؛ وهو مرويّ عن مجاهد وابن جريج والنّخعي، وعلي أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير. وقال ابن جريج: إن المعنى يحفظون عليه عمله[١]، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله[٢]. ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء في ﴿لَهُ﴾ لله عز وجل، كما ذكرنا؛ ويجوز أن تكون للمستخفي، فهذا قول. وقيل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني به النبي ﷺ؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه[٣]، وقد جرى ذكر الرسول في قوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به في أنه لا يضر النبي ﷺ، بل له معقبات يحفظونه عليه السلام، ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه. وقول رابع: أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يغنُوا عنهم من الله شيئًا[٤]؛ قاله ابن عباس وعكرمة؛ وكذلك قال الضّحاك: هو السّلطان المتحرّس من أمر الله، المشرك. وقد قيل: إن في الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوردّي. قال المهدويّ: ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه. وقيل: سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظٌ، قال القُشيري: وهذا لا يمنع الرب من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للعقوبة؛ فكأنّه الذي يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من امتثال أمر الله. وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقّبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عباده؛ قال الماورديّ: ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وجهان: أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل؛ قاله الضحاك. الثاني: يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، ما لم يأت قدرٌ ـ قاله أبو أمامة وكعب الأحبار ـ فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقبّات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج؛ ورُوى عن ابن عباس، واختاره النحاس، واحتج بقول النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»[٥] الحديث، رواه الأئمة. وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرأ «معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه»، فهذا قد بيّن المعنى. وقال كنانة العدوي: دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أخبرني عن

---

(١) هكذا عند الطبري (١٣/ ١٢٣).

(٢) هو بنحوه في السابق (١٣/ ١٢٠) وبلفظه في البحر المحيط (٥/ ٣٧٢).

(٣) ذكره الطبري (١٣/ ١٢٣) عن ابن زيد وهو ضعيف.

(٤) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٣/ ١٢٢) بسند فيه العوفيون وهو ملئ بالضعف والجهالة وقول عكرمة هناك بسند فيه ضعف والله أعلم.

(٥) صحيح: البخاري (٥٥٥) في مواقيت الصلاة، مسلم (٦٣٢) في المساجد ومواضع الصلاة.

العبد كم معه من مَلَك؟ قال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أأكتب قال : لا لعله يستغفر الله تعالى أو يتوب إليه فإذا قال ثلاثا قال : نعم اكتب أراحنا الله تعالى منه فبئس القرين هو ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل استحياءه منا يقول الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكَان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكًا على آدمي وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل»[1] ذكره الثعالبي . قال الحسن : المعقّبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. واختيار الطبري : أن المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء وخلفهم ؛ والهاء في ﴿لَهُ﴾ لهنّ؛ على ما تقدّم. وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين: أحدهما : قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره والآخر : قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه ، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحدٍ بسبب تغيير الرماة بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة الشّريعة ، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال ﷺ وقد سُئل أنَهلك وفينا الصّالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُر الخَبَثُ»[2] . والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي هلاكا وعذابا، ﴿فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾. وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ أي ملجأ؛ وهو معنى قول السدي. وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمنِ منِ وَالِ

ووَالٍ ووَلِيّ كقادر وقدير.

---

(١) ضعيف جدا وفيه جهالة : وكنانة هذا لم يدرك عثمان رضي الله عنه وفيه إبراهيم بن عبد السلام لم يوثقه إلا ابن أبي حاتم وذكره الطبري (١٣/١١٨ـ ١١٩) وقال ابن كثير : وروى الطبري هنا حديثًا غريبًا جداً ـ قصد تضعيفه ـ كما في تفسيره (٤/٣٠٦) .

(٢) صحيح : البخاري (٣٣٤٦) في الأنبياء ، مسلم (٢٨٨٠) في الفتن وأشراط الساعة عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها .

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي بالمطر. و﴿السَّحَابَ﴾ جمع، والواحدة سَحَابة، وسُحُب وسَحَائب في الجمع أيضاً. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة» القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته؛ وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أي يريكم البرق في السماء خوفاً للمسافر، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذًى مِنْ مَطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢] وطمعاً للحاضر أن يكون عقبه مطر وخِصْب[١]؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما. وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيل للقحط[٢]. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي بالماء. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ من قال: إن الرّعد صوت السحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه؛ ودليل صحة هذا القول قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فلو كان الرّعد مَلَكاً لدخل في جملة الملائكة. ومن قال: إنه ملك قال: معنى ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ من خيفة الله؛ قاله الطَّبَريّ[٣] وغيره. قال ابن عباس: إن الملائكة خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال: الرّعد ملَك يَسوق السّحاب[٤]، وإن بخار الماء لفي نُقْرة إبهامه، وأنه مُوكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبّح الله؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك في السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر، وعنه أيضاً كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي سَبَّحَت له[٥]. وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي يُسَبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد[٦]. وقيل: إنه مَلَك جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبّح سبّح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسبّح سَبَّح الجميع من خوف الله[٧]. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماورديّ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهوديّ قال للنبيّ ﷺ: أخبرني مِن أيّ شيء ربّك، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقة

---

(١) بنحوه عند الطبري (١٣/ ١٢٧).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٧٤) لأبي حيان.

(٣)، (٤) سبق الكلام عند الآية (١٩) من سورة البقرة فارجع إليه وانظر الطبري (١٣/ ١٢٧ـ ١٢٨).

(٥) حسن: البخاري (٧٢٢) في الأدب المفرد، والطبري (١٣/ ١٢٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٦) انظر السابق والمحرر الوجيز (٨/ ١٤٥) لابن عطية ـ رحمه الله.

(٧) هذا لا يصح أبداً ولا دليل عليه.

فأحرقته[١]. وقيل: نزلت في بعض كفّار العرب؛ قال الحسن: كان رجل من طواغيت العرب بعث النبي ﷺ نَفَراً يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم: أخبروني عن ربّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن فضة أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال: أُجِيبُ محمداً إلى ربّ لا يعرفه فبعث النبي ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثل هذا؛ فبينا النَّفَر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بضاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبي ﷺ فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيّ ﷺ. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾. ذكره الثعلبي عن الحسن[٢]؛ والقشيري بمعناه عن أنس، وسيأتي[٣]. وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَد بن ربيعة العامريان يريدان النبي ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا يا رسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك؛ فقال: «دَعْه فإن يُرِد الله به خيراً يَهْدِه» فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين». قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء». قال: أفتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: «لا». قال: فما تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أعنّة الخيل اليوم؟ قم معي أكلمك؛ فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر أوماً إلى أَرْبَد: إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه واضربه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبي ﷺ ويراجعه؛ فاخترط أَرْبَدْ من سيفه شبراً ثم حبسه الله، فلم يقدر على سَلّه، ويَبست يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك على أربد حتى قتلته؛ والله لأملأنها عليك خيلاً جُرْداً، وفتياناً مُرْداً؛ فقال عليه السلام: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة؛ يعني الأوْس والخَزْرَج» فنزل عامر بيت امرأة سَلولية؛ وأصبح وهو يقول: والله لئن أَصْحَرَ[٤] لي محمدٌ وصاحبه يريد مَلَك الموت لأنفذتهما برمحي؛ فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة في الوقت؛ فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول: غُدّة كغدة

(١) الحديث ضعيف عن علي رضي الله عنه : وفيه سيف بن عمر صاحب التاريخ لكنه ضعيف في الحديث ، الطبري (١٣/ ١٢٩) وأما عن ابن عباس فهو من طريق الكلبي عن أبي صالح فهو واه جداً وضعيف جداً إلى مجاهد لأنه مرسل ثم فيه ليث بن أبي سليم عن مجاهد وهو مختلط جداً . ورواه الطبري (١٨/ ١٢٩) وعزاه السيوطي (٨/ ٤٠٩) في الدر للحكيم الترمذي ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر .

(٢) هذا مرسل .

(٣) حسن : زيلعي (٣٣٤١ـ٣٣٤٢) وقال محققه : إسناده صحيح والنسائي (١١٢٥٩) في التفسير والبزار (٢٢٤١) (كشف) والبيهقي (٦/ ٢٨٣) في الدلائل ، والطبري (١٣/ ١٢٩) والطبراني (٢٦٢٣) في الأوسط وفي سندهما علي بن أبي سارة : ضعيف ، وتابعه ديلم بن غزوان كما في البيهقي في الدلائل ، و(٦٩٢) في السنة لابن أبي عاصم .

(٤) أصحر : كما في اللسان ـ نزل الصحراء .

البعير، وموت في بيت سَلُولية؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره[١]. ورثَى لَبيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال:

يا عينُ هلاّ بكَيت أَرْبَدَ إذْ قُمْـ ... ـنَا وقَامَ الخُصُوم في كَبَد
أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولاَ ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاك والأَسَد[٢]
فَجَّعني الرَّعْدُ والصَّوَاعقُ بالفا ... رسِ يَومَ الكَرِيهَةِ النَّجِد[٣]

وفيه قال:

إن الرَّزِيَّة لاَ رَزِيَّةَ مثْلُها ... فقْدَان كُلِّ أخٍ كضوء الكَوْكَب
يا أَرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ ... أَفردَتني أمشِي بقَرنٍ أعْضَب[٤]

وأسلم لبيد بعد ذلك رضي الله عنه.

مسألة: روى أَبَان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عزّ وجلّ»[٥]. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته»[٦]. وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال: كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب: من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثاً عوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ ففعلنا فعوفينا؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا بَرَدَة قد أصابت أنفه فأثّرت به، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا؟ قال: بَرَدَة أصابت أنفي فأثرت، فقلت: إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا: من قال حين يسمع الرعد: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد؛ فقلنا فعوفينا؛ فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولها[٧]؟ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني جدال اليهوديّ حين سأل عن الله تعالى: من أيّ شيء هو[٨]؟ قاله مجاهد. وقال ابن جُرَيج: جدال أَرْبَدَ فيما همّ به من قتل النبي ﷺ[٩]. ويجوز

---

(١) ضعيف جداً: الواحدي ص٢٢٧ من طريق الكلبي عن أبي صالح وكليهما أضعف من الآخر.
(٢) ذكرهما ابن كثير (٤/ ٣١٠) في تفسيره، والطبري (١٣/ ١٣٠) معضلاً عن ابن جريج.
(٣) النجد: بفتح النون وكسر الجيم: سريع الإجابة.
(٤) أعضب: مكسور.
(٥) ضعيف: وفيه رواية أبان بن يزيد وهو ضعيف وفي المجمع (١٠/ ١٣٦) ذكره عن ابن عباس وعزاه للطبراني وفيه يحيى بن كثير أبو النضر: ضعيف.
(٦) ضعيف: هو موقوف من رواية أبي هريرة وفيه جهالة المحدث عنه كما في تفسير الطبري (١٣/ ١٢٨) وقد رواه ابن المنذر وابن مردويه مرفوعاً كما في تخريج الكشاف (٢/ ١٨٤) للزيلعي.
(٧) سبق تخريجه عند الآية (١٩) من سورة البقرة.
(٨) مرسل: وقد سبق.
(٩) معضل: الطبري (١٣/ ١٣٠) في تفسيره.

obeikandi.com

أن يكون، ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ حالاً، ويجوز أن يكون منقطعاً. وروى أنس أن رسول الله ﷺ بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسول الله ﷺ: أخبرني عن إلهك هذا أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك؛ فرجع إليه فأعلمه؛ فقال: «ارجع إليه فادعه» فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [1] قال ابن الأعرابي: ﴿ الْمِحَالِ ﴾ المكر، والمكر من الله عزّ وجلّ التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أي النقمة. وقال الأزهريّ: ﴿ الْمِحَالِ ﴾ أي القوّة والشدّة. والْمَحْل: الشدّة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلاناً محَالاً أي قاويته حتى يتبيّن أينا أشدّ. وقال أبو عبيد: ﴿ الْمِحَالِ﴾ العقوبة والمكروه. وقال ابن عَرَفة: ﴿ الْمِحَالِ ﴾ الجدال؛ يقال: ماحَلَ عن أمره أي جادل. وقال القُتَيبيّ: أي شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعَال أوّله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: مِهاد ومِلاك ومِرَاس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف؛ وقال: وقرأ الأعرج «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَال» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الْهَرَويّ، إلا ما ذكرناه أوّلاً عن ابن الأعرابيّ؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة [2]، قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الْحَوْل [3]، قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها: شديد الأخذ [4]، قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد [5]، قاله ابن عباس. وخامسها: شديد القوة [6]، قاله مجاهد. وسادسها: شديد الغضب [7]، قاله وهب ابن مُنَبّه. وسابعها: شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة. وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرع نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصُنِ الْمَجْـ ـدِ كثير النَّدَى شديد المحال

وقال آخر:

ولَبَّسَ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ أعَدَّ له الشَّغَازِبَ والْمِحَالاَ

وقال عبد المطلب:

---

(١) حسن: سبق تخريجه.

(٢) عزاه السيوطي (٨/ ٤١١) في الدر لابن أبي حاتم وأبي الشيخ ولم أره في نسختي.

(٣) منقطع: بين ابن جريج وابن عباس رضي الله عنهما كما عند الطبري (١٣/ ١٣) في تفسيره.

(٤) ضعيف: فيه سيف بن عمرو وهو ضعيف كما في تفسير الطبري (١٣/ ١٣١).

(٥) رواه البغوي غير مسند كما في تفسيره (٤/ ٣٠٥) عن عكرمة كما عزاه السيوطي (٨/ ٤١٢) لأبي الشيخ عنه وهو قول السدي أيضاً.

(٦) ضعيف: فيه أبو يحيى القتات وانظر الطبري (١٣/ ١٣١) وهو قول ابن زيد أيضاً.

(٧) رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد بلفظ (شديد الانتقام) الدر المنثور (١٣/ ٤١٢).

لا هُمَّ إنّ المَـرءَ يَمـ ـنَعُ رَحلَهُ فامنَعْ حلالَكْ
لاَ يَغلِبَنَّ صَليبُهُم وَمِحا لُهُـمْ عَـدْواً مِـحَالـك

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي لله دعوة الصدق. قال ابن عبـاس وقَتَادة وغيرهما: لا إله إلا الله[١]. وقال الحسن: إن الله هو الحق، فـدعاؤه دعوة الحق[٢]. وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتـأخرين. وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف؛ فـإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ قال الْمَاوَرْدِيّ: وهو أشبـه بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام والأوثان. ﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ أي لا يستجـيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء. ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثـلاً ليأسهم من الإجـابة لدعائهم؛ لأن العرب تضـرب لمن سعى فيمـا لا يدركه مَثَـلا بالقابض الماء باليد؛ قال:

فأصبحتُ فيما كان بَيْني وبينهَا من الودّ مثلَ القابِض الماء باليدِ

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها: أن الذي يدعو إلـهاً من دون اللـه كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فِيه من بعـيد يريد تناولـه ولا يقدر عليه بلسـانه، ويشير إليه بيـده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببـالغ إليه؛ قالـه مجاهد[٣]. الثاني: أنه كالظمآن الـذي يرى خيالـه في الماء وقد بسط كفّه فيـه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمـه؛ قالـه ابن عباس[٤]. الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه. وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رِشاء؛ وشاهده قول الشاعر:

فإن الماءَ ماءُ أَبِي وجدّي وبِئري ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال علي رضي اللـه عنه: هو كـالعطشان على شفة البـئر، فلا يبلغ قعر البـئر، ولا الماء يرتفع إليه[٥]؛ ومعنى ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ ﴾ إلا كاستجابة باسط كفيه ﴿إِلَى الْمَاءِ﴾ فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم

---

(١) ضعيف إلى ابن عباس، صحيح إلى قتادة: فيه سماك عن عكرمة وهي رواية فيها اضطراب، وفيه علي بن أبي طلحـة الوالبي عن ابن عـباس وفـيه انقطاع، الـطبري (١٣/ ١٣٢) وعـبد الرزاق (١/ ٣٣٤) والدعـاء (٥٨٠) للطبـراني والبيهـقي (٢٠٤) وزاد السيـوطي عزوه لأبي الشـيخ والبيهـقي في الأسمـاء والصفات (الـدر المنثور ٨/ ٤١٣).

(٢) أبو حيان (٥/ ٣٧٦) في البحر المحيط.

(٣) صحـيح إلى مجـاهد: الطبري (١٣/ ١٣٣) وقـد روي مرفوعـاً عند أبي يعلى (٥/ ٢٨٦٣) بسند فـيه أبو هلال الراسـبي عن قتـادة عن أنس به وأبو هلال ضـعيف لكن له إسناد آخـر عند المروزي (١/ ٤٩٤) في تعظيم قـدر الصلاة، وحسنه الضياء (٧/ ٢٦٦١) في المختارة.

(٤) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما، الطبري (١٣/ ١٣٤).

(٥) ضعيف: الطبري (١٣/ ١٣٣) وفيه سيف بن عمر وهو ضعيف.

حذف المضاف؛ وفاعل المصدر المضاف مـراد في المعنى وهو الماء؛ والمعنى: إلا كإجابة باسط كفيه إلى الماء؛ واللام في قولـه: ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ متعلقة بالبسط؛ وقولـه: ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ كناية عن الماء؛ أي وما الماء ببالغ فاه. ويجوز أن يكون ﴿ هُوَ﴾ كناية عن الفم؛ أي ما الفم ببالغ الماء. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال أي يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فـلا يجدون منه سبـيلاً؛ كمـا قال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] وقال ابن عباس: أي أصوات الكافرين محجوبة عن اللـه فلا يسمع دعاءهم[١].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يـسجد كَرهاً بالسيف[٢]. وعن قَتَادة أيضاً: يسجـد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجود الكافر كَرها ما فيه من الخضوع وأثر الصّنعة. وقال ابن زيد: ﴿ طَوْعًا ﴾ من دخل في الإسلام رغبة، و﴿ وَكَرْهًا﴾ من دخل فيه رهبة بالسيف[٣]. وقيل: ﴿ طَوْعًا ﴾ من طالت مدة إسلامه فـألف السجود، و﴿ وَكَرْهًا﴾ من يكره نفسه لله تعـالى؛ فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى ﴿ وَالأَرْضِ ﴾ وبعض من في الأرض. قال القُـشَيْرِي: وفي الآية مسلكان: أحـدهما: أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعـاً، وبعض الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين؛ فالآية محـمولة على هؤلاء، ذكره الفرّاء. وقيل على هذا القـول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعاً لا يثـقل عليه السجود، ومنهـم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكلـيف مشقّة، ولكنهم يتـحملون المشقّة إخلاصـاً وإيماناً، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثاني: وهو الـصحيح إجراء الآية على التعمـيم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أن المؤمن يسجـد طوعاً، وأما الكافر فمأمـور بالسجود مؤاخذ به. والثاني: وهو الحق أن المؤمن يسجد ببـدنه طوعاً، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهو تسبـيح دلالة لا تسبيح عـبادة. ﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] أي ظلال الخلق ساجدة لله تعـالى بالغدوّ والآصال؛ لأنها تبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحـية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨] قاله ابن عباس[٤] وغيره. وقال مجاهد: ظِلّ المؤمن يسجد طـوعاً وهو طائع؛ وظل الكافر يسجـد كرهاً وهو كاره[٥]. وقال ابن الأنباريّ: يجعل للظلال عقـول تسجد بها وتـخشع بها، كمـا جعل للجبـال أفهام حتى خـاطبت وخوطبت[٦]. قال

(١) ضعيف: للانقطاع بين الضحاك وابن عباس، كما في تفسير البغوي (٤/ ٣٠٦).
(٢-٣) صحيح إلى قتادة وحسن إلى ابن زيد: الطبري (١٣/ ١٣٥).
(٤) ضعيف: الطبري (١٣/ ١٣٥) عـن ابن عباس رضـي الله عنهما مـن طريق العوفـيين وقد امـتلأ الإسناد جـهالة وضعفاً.
(٥) كذا عند الطبري في السابق.
(٦) ضعفه أبو حيان (٥/ ٣٧٨) في البحر المحيط.

القُشَيري: في هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة أي مالت. و﴿ وَالآصَالِ﴾ جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلي:

لَعَمْرِي لأَنْتَ البيتُ أُكرِمُ أهلَهُ وأقعدُ في أفْيَائِه بالأصَائِل

و﴿وَظِلالُهُم﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ مَن ﴾ ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ التقدير: وظلالُهم سُجَّدٌ بالغدوّ والآصال و﴿بِالْغُدُوِّ﴾ يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوّي كونه جمعاً مقابلة الجمع الذي هو الآصال به.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا مَن هو. ﴿ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا يدلّ على اعترافهم بأن الله هو الخالق وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ معنى؛ دليله قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[لقمان: ٢٥] أي فإذا اعترفتم فَلِمَ تعبدون غيره؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَلٌ لما عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي «يستوي» بالياء لتقدم الفعل؛ ولأن تأنيث﴿ الظُّلُمَاتُ ﴾ ليس بحقيقي. الباقون بالتاء؛ واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل. و﴿الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خَلَق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء. والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ قبل كل شيء. ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد. قال القُشَيريّ أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع؛ أي سَلْهُم عن خالق السماوات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز إعتداد الشريك له؟ وبيّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ ضرب مثلاً للحق والباطل؛ فشبَّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ، على ما نبيّنه. قال مجاهد: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: بقدر ملئها[1]. وقال ابن جُرَيج: بقدر صغرها وكبرها[2]. وقرأ الأشْهَبُ العُقَيْلي والحسن «بِقَدْرِهَا» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدّر لها. والأودية جمع الوادي؛ وسمّي وادياً لخروجه وسيلانه؛ فالوادي على هذا اسم للماء السائل. وقال أبو علي: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ توسع؛ أي سال ماؤها فحذف؛ قال: ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي طالعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء، وتمّ الكلام؛ قاله مجاهد[3]. ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو المثل الثاني. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي حلية الذهب والفضة. ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ قال مجاهد: الحديد والنحاس والرصاص[4]. وقوله: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبُتُ في الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ قال مجاهد: جموداً. وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَت الْقِدْرُ إذا غَلَت حتى ينصبّ زَبَدُها، وإذا جَمَد في أسفلها. والجُفاء ما أجفاه الوادي أي رمَى به. وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ «جُفَالاً» قال أبو عبيدة: يقال أَجْفَلَت القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماء الخالص الصّافي. وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص؛ وهو أن المثَلين ضربهما الله للحقّ في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخَبَث. وقيل: المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب؛ فَشبَّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبَّه القلوبَ بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها. قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال: قرآناً؛ ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأودية

(١-٤) الطبري (١٣/ ١٣٩) في تفسيره.

قلوب العباد[١]. قال صاحب «سوق العروس»[٢] إن صحّ هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثّل القرآن بالماء. ومثّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصّافي، ومثل المتشابة بالزّبد. وقيل: الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلَعها، كما أن ماء السّيل يجري صافياً فيرفع ما يجد في الوادي باقياً، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنية. والأخلاق الزّكية؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذّهب والفضّة زينة النّساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿يَنفَعُ النَّاسَ﴾ فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام: ﴿أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية. وقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاء التي في ﴿عَلَيْهِ﴾ التقدير: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً. وفي قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي اسم ذي الحال ولا يستقيم أن يتعلق ﴿فِي النَّارِ﴾ بـ﴿يُوقِدُونَ﴾ من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليه في النار؛ لأن الموقَد عليه يكون في النَّار، فيصير قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ غير مفيد. وقوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ مفعول له. ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ ابتداء وخبر؛ أي زبد مثل زبد السّيل. وقيل: إن خبر ﴿زَبَدٌ﴾ قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ الكسائي: ﴿زَبَدٌ﴾ ابتداء، و﴿مِّثْلُهُ﴾ نعت له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات. تم الكلام، ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أي أجابوا؛ واستجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فلَمْ يَسْتَجِبْه عند ذاكَ مُجيب

وقد تقدم؛ أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ لأنها في نهاية الحسن. وقيل: من الحسنى النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غداً. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم يجيبوا إلى الإيمان به. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من الأموال. ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ملك لهم. ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره في «آل عمران» ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١] حسب ما تقدم بيانه هناك. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَدٌ السَّبَخِيّ: قال (لي) إبراهيم النَّخعيّ: يا فَرْقَد أتدري ما سوء الحساب؟ قلت: لا: قال أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شيء[٣]. ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ أي مسكنهم ومقامهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن

---

(١) ضعيف: ولا يصح أبداً كما قال أبو حيان (٥/ ٣٨١) في البحر المحيط. قلت: وعلامات وضع الصوفية وطلاسمهم لائحة على هذا الأثر.

(٢) هو أبو معشر عبد الكريم الطبري (٤٧٨هـ) كشف الظنون (٣/ ١٠٠٩).

(٣) رواه الطبري (١٣/ ١٤٣) في تفسيره. ورواه سعيد بن منصور (١١٦٦) في سننه وعزاه السيوطي (٨/ ٤٢٤) في الدر المنثور لأبي الشيخ.

والكافر، ورُوي أنها نزلت في حمزة بـن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل لعنه الله[١]. والمراد بالعَمَى عَمَى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ۝٢٠﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألبـاب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفـون بعهد الله. والعـهد اسم للجنس؛ أي بجمـيع عهود الله، وهي أوامـره ونواهيه التي وصّى بها عَبِـيده؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جـميع الفروض، وتجنبُ جمـيع المعاصي. وقوله: ﴿وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ يحـتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي إذا عـقدوا في طاعـة الله عهـداً لم ينقضوه. قال قَـتَادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعـشرين آية؛ ويحتمل أن يشيـر إلى ميثـاق بعينه، وهو الذي أخذه الله على عـباده حين أخرجـهم من صلب أبيهم آدم[٢]. وقال القَفّال: هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات.

الثانية: روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ» وكنا حديث عهـد ببيعة فقلنا: قد بايعناك حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبـايعناه، فقال قائل: يا رسول الله إنا قد بايعناك فعلى ماذا نـبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئـاً وتُصلّوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتُطيعوا وأسرّ كلمةً خَـفيَّةً قال لا تسألوا الناس شيئاً». قال: ولقد كان بعض أولئك النفـر يسقط سَوْطه فما يسأل أحداً أن يناوله إيّاه[٣]. قال ابن العربي[٤]: من أعظم المواثيق في الذكر ألاّ يُسأل سـواه؛ فقد كان أبو حمزة الخـراساني من كبار العبّاد سمع أن أناسـاً بايعوا رسول الله ﷺ ألاّ يسألوا أحداً شيئاً، الحـديث؛ فقال أبو حمزة: رب إن هؤلاء عاهدوا نبيّك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألاّ أسأل أحداً شيئاً؛ قال: فخرج حَاجّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطـريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم، فبـينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق؛ فلما حلّ في قعـره قال: أستغيث لعل أحداً يسمعني. ثم قال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله لا تكلمت بحرف للبشر، ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرّ بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدّ هذا البئر؛ ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبداً؛ ثم رجع إلـى نفسه فقال: أليس قد عـاهدت مَن يراك؟ فسكَتَ وتوكّل، ثم استند في قعر البـئر مفكراً في أمره فإذا بالتراب يقع عليـه؛ والخشب يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك قال: فأعطيته يدي فأقلّني في مـرة واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أر أحداً؛

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/ ٣٩).

(٢) انظر المحرر الوجيز (٨/ ١٦٠) لابن عطية الأندلسي.

(٣) صحيح: مسلم (١٠٨/١٤٣) في الزكاة، وأبو داود (١٦٤٢) في الزكاة.

(٤) انظر أحكام القرآن (٣/ ١١١) لابن العربي المالكي ـ رحمه الله.

فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؛ وأنشد:

نَهاني حَيائي منكَ أن أكشفَ الهوى فأغنيتني بالعلْمِ منكَ عن الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديت شاهدي إلى غائبي واللُّطفُ يُدرَكُ باللُّطف
تَراءيتَ لي بالعلم حتى كأنما تُخبِّرُني بالغيب أنّكَ في كَفٍّ
أراني وبي من هَيْبَتي لَكَ وَحْشَةٌ فتؤنسُني باللُّطف منكَ وبالعطف
وتُحيِي مُحبّاً أنت في الحبِّ حَتْفُهُ وذا عَجبٌ كيف الحَياةُ مَعَ الحَتْفِ

قال ابن العربي: هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا. قال أبو الفرج الجوزي(١): سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحلّ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة؛ كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروجَ من مكة، واستجاره دليلاً، واستكتامه ذلك الأمر، واستتاره في الغار، وقوله لسُراقة: «أخفِ عنّا»(٢). فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه، وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر، وآلة يجتلب بها النفع، فإذا عطلها مدّعياً للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل، ورداً لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار(٣)؛ قاله سفيان الثوري وغيره، لأنه قد دلّ على طريق السلامة، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه. وقال أبو الفرج: ولا التفات إلى قول أبي حمزة: «فجاء أسد فأخرجني» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقاً، وقد يكون لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذي هو كَسْبه، وهو إعانته على نفسه التي هي وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهر في صلة الأرحام، وهو قول قَتادة(٤) وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرَّحم. وقيل:

(١) وهو كلام صحيح.
(٢) قطعة من حديث البخاري (٣٩٠٦) في المناقب من قصة الهجرة الطويلة.
(٣) انظر البحر المحيط (٥/ ٣٨٥) لأبي حيان.
(٤) الطبري (١٣/ ١٤٣) في تفسيره.

في جميع المعاصي. ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ . سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نوقش الحساب عُذّب(١) . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير: معنى. ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم(٢) . الحسن: هو صلة محمد ﷺ. ويحتمل رابعاً: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح؛ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيما أمرهم بوصله، ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: ﴿الَّذِينَ﴾ مستأنف؛ لأن ﴿صَبَرُوا﴾ ماض فلا ينعطف على ﴿يُوفُونَ﴾. وقيل: هو من وصف مَن تقدّم، ويجوز الوصف تارة بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان ﴿الَّذِينَ﴾ يتضمن الشرط و الماضي في الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله(٣) . وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب(٤) . وقال أبو عِمْران الْجَوْني: صبروا على دينهم(٥) ابتغاء وجه الله. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة المفروضة(٦) ؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة» وغيرها. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح السيّئ من الأعمال(٧) ، قاله ابن عباس. ابن زيد: يدفعون الشر بالخير(٨) . سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف(٩) . الضّحاك: يدفعون الفحش بالسلام(١٠) . جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبي: يدفعون سفه الجاهل بالحلم(١١) ؛ فالسَّفه السّيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: «وأَتْبِعْ السّيّئة الحَسَنَة تَمْحُها وخَالِق النَاسَ بِخُلُق حَسَن»(١٢) . قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غداً داران: الجنة للمطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عنى بالدار دار

---

(١) هذا حديث مرفوع رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) ذكره السيوطي (٨/٤٢٦) في الدر المنثور وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله .

(٣ـ٥) البحر المحيط (٥/٣٨٦) .

(٦) ضعيف : الطبري (١٣/ ١٤٤) في تفسيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وفيه انقطاع .

(٧) فتح القدير (٣/ ١١١) للشوكاني .

(٨) الطبري (١٣/ ١٤٥) في تفسيره .

(٩) البحر المحيط (٥/ ٣٨٦) وبنحوه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٨/ ٤٢٧) .

(١٠) عزاه السيوطي (٨/ ٤٢٧) في الدر المنثور لابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ .

(١١) انظر أبي حيان (٥/ ٣٨٦) في البحر المحيط .

(١٢) حسن : أحمد (٥/ ٢٢٨ـ٢٣٦) في المسند ، والترمذي (١٩٨٧) في البر والصلة عن أبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما وضعفه ابن رجب الحنبلي رقم (١٨) في جامع العلوم والحكم .

الدنيا؛ أي لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي لهم جنات عدن؛ فـ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى﴾ ويجوز أن تكون تفسيراً لـ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي لهم دخول جنات عدن؛ لأن ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ حَدَث و﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ عين، والحدث إنما يفسر بحدَث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر ابتداء محذوف. و﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وسط الجنة وقَصَبَتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيري أبو نصر عبد الملك. وفي صحيح البخاري: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة»[1] فيحتمل أن يكون ﴿جَنَّاتُ﴾ كذلك إن صحّ فذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن في الجنة قصراً يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حَبَرَة[2] لا يدخله إلا نبي أو صدّيق أو شهيد[3]. و﴿عَدْنٍ﴾ مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانه في سورة «الكهف» إن شاء الله تعالى. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿أُولَئِكَ﴾ المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم؛ أي من كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضع ﴿مِنْ﴾ نصباً على تقدير: يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم. وقال ابن عباس: هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول[4]، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة. قال القُشَيريّ: وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهر أن هذا الصلاح في جملة الأعمال، والمعنى: أن النعمة غَداً تَتمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ أي يقولون: سلام عليكم؛ فأضمر القول، أي قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي بصبركم؛ فـ«ما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في «بما» متعلقة بمعنى. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي هذه الكرامة بصبركم، أي على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير[5]. وقيل: على الفقر في الدنيا[6]؛ قاله أبو عِمران

---

(١) صحيح: البخاري (٢٧٩٠) في الجهاد والسير عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حبرة: على وزن (عنبة): ثوب فيه خطوط.

(٣) ضعيف: الطبري (١٣/ ١٤٥) في تفسيره موقوفاً على ابن عمرو رضي الله عنهما، وفيه علي (بن جرير) وهو مجهول، ثم ذكره ابن أبي حاتم موقوفاً في العلل (٢/ ٤٣٦) وضعفه.

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣٨٧) لأبي حيان.

(٥) عزاه السيوطي (٨/ ٤٢٩) في الدر المنثور لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن سعيد بن جبير.

(٦) رواه عبد الرزاق (١/ ٣٣٥) وعزاه السيوطي (٨/ ٤٣١) في الدر لابن جرير الطبري وهو عنده (١٣/ ١٤٦).

الجوني. وقيل: على الجهـاد في سبيل اللـه؛ كما روي عن عبد اللـه بن عمـر قال: قال رسول اللـه ﷺ: «هل تدرون من يدخل الجنة مـن خلق اللـه؟ قالـوا: اللـه ورسولـه أعلم؛ قال: «المجـاهدون الذين تُسدّ بهم الثـغور وتُتّقى بهم المكاره فـيموت أحدهم وحـاجته في نفـسه لا يستطيع لـها قـضاء فتـأتيهم الملائكة فيـدخلون عليهم من كل باب سلام عـليكم بما صبرتم فنعم عـقبى الدار»[١]. وقال محمد بن إبراهيم: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشـهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[٢] وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكـره الْبَيْهَقِيّ عن أبي هُريرة قال: كان النبي صلى اللـه عليـه وسلّم يأتي الشـهداء، فَإِذَا أَتَـى فُرْضَةَ الشِّـعْب[٣] يقول: «السـلام عليكم بما صبرتم فنعم عقـبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى اللـه عليه وسلّم يفعلـه، وكـان عمر بعد أبي بكر يفعلـه، وكان عثمان بعد عمر يفعلـه[٤]. وقال الحسن البصري رحمه اللـه: ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ عن فضول الدنيا[٥]. وقيل: ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية؛ قال معناه الفُضَيْل ابن عِيَاض. ابن زيد: ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ عما تحبونه إذا فقدتموه[٦]. ويحتمل سابعاً: ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ عن اتباع الشهوات. وعـن عبد اللـه بن سَلاَم وعلي بن الحسين رضي اللـه عنهم أنهـما قالا: إذا كان يوم القيامـة ينادي مناد ليقم أهل الصبر؛ فـيقوم ناس من الناس فيـقال لـهم: انطلقوا إلى الجنة فـتتلقّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ قـالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبّرنا أنفسنا على طاعة اللـه، وصبّرناها عن معـاصي اللـه وصبّـرناها على البلاء والمحن فـي الدنيا[٧]. قال علي بن الحـسين: فتـقول لـهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجـر العاملين. وقال ابن سَلاَم: فتقـول لـهم الملائكة: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾. ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي نعم عاقبة الدار التي كنـتم فيها؛ عملتم فيهـا ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه؛ فالعقبى على هذا اسم، و﴿ الدَّارِ ﴾ هي الدنيا. وقال أبو عِمران الْجَوْني: ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الجنة عن النار[٨]. وعنه: ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الجنة عن الدنيا.

---

(١) جيد : أحمد (١١/ ١٣١) والبزار (٢٤٥٧) ابن حبان (٧٤٢١) الحاكم (٢/ ٧١ـ٧٢) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

قلت : ووجدته هنا عن (ابن عمر) وهو عن (عبد الله بن عمرو بن العاص) رضي الله عنهما .

(٢) ضعيف للإرسال : الطبري (١٣/ ١٤٦) .

(٣) يعني فوهته ـ كما في اللسان ، والشِعْب : طريق بين جبلين .

(٤) ضعيف : البيهقي (٣/ ٣٠٦) في الدلائل ، ورواه ابن كثير في البداية من طريقه وفيه (عباد بن أبي صالح) : لين الحديث وفيه (موسى بن يعقوب) صدوق سيئ الحفظ وعزاه السيوطي لابن المنذر وابن مردويه عن أنس كما في الدر (٨/ ٤٣٢) .

(٥) ذكره السيوطي (٨/ ٤٣١) عن الحسن وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ .

(٦) حسن إليه : الطبري (١٣/ ١٤٦) في تفسيره .

(٧) لم أجده فيما بين يدي من مصادر .

(٨) انظر الطبري (١٣/ ١٤٦) .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ لما ذكر الموفين بعهده، والمواصلين لأمره، وذكر مالهم ذكر عكسهم. نقض الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولهم، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ أي من الأرحام. والإيمان بجميع الأنبياء. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أي الطرد والإبعاد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أي سوء المنقلَب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقّاص: والله الذي لا إله إلا هو إنهم الْحَرُورية[1]. قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا، لأنها دار امتحان؛ فبَسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق؛ ومنه. ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيّق. وقيل: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعطي بقدر الكفاية. ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني مشركي مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله؛ وهو معطوف على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾. وفي الآية تقديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي في جنبها. ﴿إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أي متاع من الأمتعة، كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة[2]. وقال مجاهد: شيء قليل ذاهب[3]؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع، فلا بدّ له من زوال. ابن عباس: زَادٌ كزاد الراعي[4]. وقيل: متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها. وقيل: ما يتزود منها إلى الآخرة، من التقوى والعمل الصالح، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ثم ابتدأ. ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسّع ويضيّق.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ بين في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصدق، والقائل عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلّم بالآيات[5]. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ أي كما

(١) صحيح الإسناد : الطبري (١٣/١٤٧) في تفسيره .
(٢) السُّكُرُّجة : في اللسان : إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم ، وهو قول الكلبي في تفسير البغوي (٤/٣١٥) .
(٣) صحيح إليه : الطبري (١٣/١٤٨) .
(٤) ذكره أبو حيان (٥/٣٨٨) عن ابن عباس في البحر المحيط والطبري (١٣/١٤٨) عن عبد الرحمن بن سابط .
(٥) البحر المحيط (٥/٣٨٨) .

أضلكم بعد مـا أنزل من الآيات وحرمكم الاستـدلال بها يضلّكم عند نزول غـيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي من رجع. والهاء في ﴿إِلَيْهِ﴾ للحق، أو للإسلام، أو لله عزّ وجلّ؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبي صلى الله عليه وسلّم.

قوله تـعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب، لأنه مـفعول؛ أي يـهدي الله الذين آمنوا. وقيل بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ فهو في مـحل نصب أيضاً. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تسكن وتسـتـأنس بتـوحـيد الـله فتـطمئن؛ قـال: أي وهم تطـمئن قلـوبهم على الدوام بذكـر الله بألسنتهم[١]؛ قاله قَتَادة. وقال مجاهد وقَـتَادة وغيرهما: بالقرآن[٢]. وقال سفيـان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعـده. ابن عباس: بالحلف باسمه، أو تطمئـن بذكر فضله وإنعامه؛ كمـا تَوْجل بذكر عدله وانتقـامه وقضـائه. وقيل: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي يذكرون الله ويتـأملون آياته فيعـرفون كمـال قدرته عن بصيرة. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خصمـه بالله سكن قلبه[٣]. وقيل: ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بطاعة الله. وقيل: بثـواب الله. وقيل: بوعد الله. وقال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ[٤].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ابتداء وخبـره. وقيل: معناه لهم طُوبَى، فـ﴿طُوبَىٰ﴾ رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جعل لهم طُوبى» ويعطف عليه ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ على الوجهين المذكـورين، فترفع أو تنصب. وذكر عـبد الرزاق: أخبرنا مَـعْمَر عن يحيى بن أبي كَـثير عن عمـرو بن أبي يزيد البِكَالي عن عُتْبـة بن عَبْد السُّلَمي قال: جـاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحـوض فقال: فيها فاكهة؟ قـال: «نعم شجرة تدعى طوبى» قال: يا رسول الله أي شـجرة أرضنا تشبه؟ قـال: «لا تشبه شيئـاً من شجر أرضك أأتيت الشام هـناك شجرة تدعى الجوزة تـنبت على ساق ويفتـرش أعلاها». قـال: يا رسول الله فـما عظم أصلهـا قال: «لو ارْتَحلْتَ جَذَعة من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَماً[٥]». وذكر الحديث، وقد كَتَبْنَاه بكمـاله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة» والحمـد لله. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنـا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَـوْشَب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعالى لهـا: تفتّقي لعبدي عمـا شاء؛ فَتَفَتَّق له عن فرس بسـرجه ولجامه وهيئتـه كما شاء، وتَفَتَّق عن الراحلة برِحلها وزمامها وهيئتـها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب[٦]. وذكر ابن وهب من

(١ـ٢) الطبري (١٣/ ١٤٩ـ ١٥٠).

(٣) ذكره السيوطي (٨/ ٤٣٥) في الدر عن السُّدي.

(٤) صحيح إليه: الطبري (١٣/ ١٤٩) وعزاه السيوطي في الدر (٨/ ٤٣٥) لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن المنذر، وابن أبي شيبة ـ رحمهم الله جميعاً.

(٥) محتمل للتحسين: أحمد (٢٩/ ١٩١) برقم (١٧٦٤٢) وقال محققوه: إسناده جيد، وصححه الأرناؤوط (٧٤١٤) لغيره في صحيح ابن حبان (٦٤٥٠)، الطبري (١٣/ ١٥٣) في تفسيره.

(٦) ضعيف: شهر بن حوشب مختلف فيه، الطبري (١٣/ ١٥١) وعبد الرزاق (١/ ٣٣٦) وابن أبي الدنيا (٥٥) في الجنة.

حديث شهر بن حوشب عن أبي أُمامة الباهليّ قال: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هي منها[١]؛ وقد قيل: إن أصلها في قصر النبيﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا. وقال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ فرح لهم وقرة عين[٢]؛ وعنه أيضاً أن﴿طُوبَىٰ﴾ اسم الجنة بالحبشية[٣]؛ وقاله سعيد بن جُبَير[٤]. الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيري: إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين. وقال قَتَادة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ حسنى لهم. عِكْرمة: نعمى لهم[٥]. إبراهيم النَّخَعيّ: خير لهم[٦]؛ وعنه أيضاً كرامة من الله لهم. الضّحاك: غبطة لهم[٧]. النحاس: وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطّيب؛ أي العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطّيب. وقال الزّجاج: طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب، وهي الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واواً لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا: موسِر وموقِن.

قلت: والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلي؛ ذكره أبو عمر في التمهيد، ومنه نقلناه؛ وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره؛ وذكر أيضاً المهدوي والقُشَيري عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه أن رسول اللهﷺ قال: «طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحليّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة[٨]» ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبيّ. وقال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة في الجنة أصلها في دار عليّ، وفي دار كل مؤمن منها غُصْن[٩]. وقال أبو جعفر محمد بن علي: سئل النبيﷺ عن قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ قال: «شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة» ثم سئل عنها مرة أخرى فقال: «شجرة أصلها في دار عليّ وفروعها في الجنة». فقيل له: يا رسول الله سئلت عنها فقلت: «أصلها في داري وفروعها في الجنة» ثم سئلت عنها فقلت: «أصلها في دار علي وفروعها في الجنة؛ فقال النبيﷺ: «إن داري ودار عليّ غداً في الجنة واحدة في مكان واحد[١٠]» وعنهﷺ: «هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مُدَلّى فيها غُصن منها[١١]». ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ آب إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وعملوا الصالحات طوبى لهم.

---

(١) منكر: فيه العلة السابقة، ورواه ابن أبي الدنيا (١٤٩) في صفة الجنة، وقال محققه: إسناده منكر.

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما، الطبري (١٣/ ١٥٠).

(٣، ٤) ضعيف: السابق نفسه.

(٥ ـ ٧) انظر الطبري (١٣/ ١٥٠).

(٨) موضوع: الطبري (١٣/ ١٥٣) وفي ضعيف الجامع (٣٦٣٠) والسلسلة الضعيفة (٣٨٣٠) للألباني ـ رحمه الله.

(٩) ذكره السيوطي (٨/ ٤٤٠) في الدر عن ابن سيرين وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره.

(١٠، ١١) ضعيفان: الرازي (٩/ ٢٤٥) في تفسيره حكاية عن أبي بكر الأصمعي وذكره ابن أبي حاتم (٨/ ٤٤٥) مطولا كما في الدر للسيوطي.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك[1]؛ قاله الحسن. وقيل: شبّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله. ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ قال مقاتل وابن جُريج: نزلت في صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصُّلْح، فقال النبي ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذاب؛ اكتب باسمك اللهم، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون؛ فقال النبي ﷺ لعليّ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي ﷺ: دعنا نقاتلهم؛ فقال: «لا ولكن اكتب ما يريدون[2]» فنزلت. وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَٰنُ؟ فنزلت[3]. ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم. ﴿هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ واعتمدت ووثقت. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت، رضاً بقضائه، وتسليماً لأمره. وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحِجْر ويقول: «يا الله يا رحمن» فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾هذا متصل بقوله: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الرعد: ٢٧]. وذلك أن نفراً من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميّان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم؛ فقال له عبد الله: إن سرّك أن نتبعك فسيّر لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنّا حتى تنفسح؛ فإنها أرض ضيّقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس

(١) أبو حيان (٥/ ٣٩٠) في البحر المحيط.

(٢) هذا مرسل وربما كان معضلاً ورواه الطبري (١٣/ ١٤٥) عن قتادة وابن جريج عن مجاهد وزاد السيوطي (٨/ ٤٥٢) زيادة عزوه ابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، وابن المنذر عن ابن جريج.
قلت: وهذا ثابت في قصة الحديبية عن البخاري (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢) في الصلح: من حديث المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم يصدق حديث بعضها البعض.

(٣) ضعيف: الواحدي ص ٢٢٨ إلى ص ٢٢٩ عن الضحاك عن ابن عباس منقطعاً.

ونزرع؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه، وسَخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليها مِيرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخّرت له الريح كما زعمتَ؛ فلستَ بأهونَ على ربك من سليمان بن داود، وأحْيِ لنا قُصيًّا[1] جدّك، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله؛ أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولست بأهون على الله منه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية؛ قال معناه الزّبير بن العوام[2] ومجاهد وقَتَادة والضّحاك؛ والجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لما في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعَةً ... ولكنَّها نفسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

يعني لهان عليّ؛ هذا معنى قول قَتَادة؛ قال: لو فَعَل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم. وقيل: الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا. الفراء: يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن. الزّجاج: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾ إلى قوله: ﴿ الْمَوْتَىٰ ﴾ لما آمنوا، والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾. ﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو المالك لجميع الأمور، الفاعل لما يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفراء: قال الكَلْبي: ﴿ يَيْأَسِ ﴾ بمعنى يعلم، لغة النَّخَع؛ وحكاه القُشَيْري عن ابن عباسٍ؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح.

وقيل: هو لغة هَوَازِن؛ أي أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبيّنوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْري:

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذ يَيْسِرُونَنِي ... أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونني من المَيْسر، وقد تقدم في «البقرة»؛ ويروى يأسرونني من الأَسْر. وقال رَبَاح بن عديّ:

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنّي (أنا) ابْنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أرضِ الْعَشيرةِ نائيَا

في كتاب الرّد «أني أنا ابنه» وكذا ذكره الغزنوي: ألم يعلم؛ والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات. وقيل: هو من اليأس المعروف؛ أي أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم؛ لأن المؤمنين تَمنَّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار. وقرأ عليّ وابن عباس: «أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ الَّذِينَ آمَنُوا» من البيان. قال القُشَيْري: وقيل لابن عباس المكتوب ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ قال: أظن الكاتب كتبها وهو

---

(١) قصي هو جد النبي ﷺ وهو الرابع في النسب .

(٢) ضعيف : أورده الهيثمي (٧/ ٨٥) في المجمع ، وقال : رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي ، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم وعليهما وثق ، وقد ضعفهما الجمهور . قلت : وانظر ضعفاء ابن الجوزي (١٨١٤، ٢٠٧٢) قلت :ورواه الواحدي ص ٢٢٩ من نفس الطريق ورواية مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد عند الطبري (١٣/ ١٥٥ـ ١٥٦) .

obeikandl.com

ناعس(١)؛ أي زاد بعض الحروف حتى صار ﴿ يَيْأَسِ ﴾. قال أبو بكر الأنباريّ: روي عن عِكرمة عن ابن أبي نَجِيح أنه قرأ «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها احتجّ من زعم أنه الصواب في التلاوة؛ وهو باطل(٢) عن ابن عباس، لأن مجاهداً وسعيد بن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عباس، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس؛ ثم إن معناه: أفلم يتبين؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط مما أوردوا؛ وأمّا سقوطه يبطل القرآن، ولزوم أصحابه البهتان. ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، أي أنه لو يشاء الله ﴿لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وهو ردّ على القَدَرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم، ويقال: قرعه أمر إذا أصابه، والجمع قَوارِع؛ والأصل في القرع الضرب؛ قال:

أَفْنَى تِلاَدِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبِ قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ

أي لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أَرْبَدَ أو من قتل أو من أسر أو جدب، أو غير ذلك من العذاب والبلاء؛ كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين. وقال عِكرِمة عن ابن عباس: القارعة النكبة(٣). وقال ابن عباس أيضاً وعكْرمة: القارعة الطلائع والسرايا التي كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي القارعة(٤). ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله قتادة والحسن. وقال ابن عباس: أو تَحُلّ أنت قريباً من دارهم(٥). وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقُرى المدينة ومكة. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ في فتح مكة(٦)؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: نزلت بمكة؛ أي تصيبهم القوارع، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلّ قريباً من دارهم، أو تحلّ بهم محاصراً لهم؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف، ولِقلاع خَيْبَر، ويأتي وعد الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم. وقال الحسن: وعد الله يوم القيامة(٧).

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ

(١) هذا وإن كان إسناده صحيح كما عند الطبري (١٣/١٥٨) إلا أنه من وضع الزنادقة والله أعلم حتى أن الزمخشري ضعفه في الكشاف (٢/ ٣٦٠) وقال أبو حيان (٥/ ٣٩٣) في البحر المحيط عن هذا الأثر: قول زنديق ملحد، والله أعلم.

قلت: القراءة شاذة كما في مختصر الشواذ (ص٧١) لابن خالويه وسوف يضعفه المصنف هنا بقوله: باطل.

(٢) نعم هو باطل كما في الهامش السابق.

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٩٣).

(٤) حسن: الطبري (١٣/ ١٥٩) في تفسيره، البيهقي (٤/ ١٦٨) في الدلائل فيه أبو داود الطيالسي عن المسعودي، وقد روى عنه بعد الاختلاط، لكن له رواية أخرى عند الطبري من غير هذا الطريق.

(٥) الطبري في السابق (١٣/ ١٦٠).

(٦) الطبري (١٣/ ١٦٠) في تفسيره.

(٧) ضعيف: السابق (١٣/ ١٦١) وفيه جهالة المحدث عن الحسن ـ رحمه الله.

هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء في «البقرة»[١] ومعنى الإملاء في «آل عمران»[٢] أي سُخِر بهم، وأزري عليهم؛ فـأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّي لأمور الخلق؛ كما يقال: قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقـها ويرزقها ويحفظهـا ويجازيها على عملهـا؛ فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل. وقيل: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ أي عالم؛ قاله الأعمش. قال الشاعر:

فلولا رجالٌ من قريشٍ أعزّة ... سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللَّهُ قائمُ

أي عالم؛ فـالله عالم بكسب كل نفس. وقـيل: المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم[٣]، عن الضحاك. ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال؛ أي أو قد جعلوا، أو عطف على «اسْتُهْزِئَ» أي استهزؤوا وجعلوا؛ أي سَمّوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة. ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿سَمُّوهُمْ ﴾ أي بيّنوا أسماءهم، على جهة التـهديد؛ أي إنما يسمّون: اللاّت والعُزّى ومَنَاة وهُبَل. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ ﴿ أم ﴾ استفـهام توبيخ، أي أتنبئونه؛ وهـو على التحقيق عطف على اسـتفهام مـتقدّم في المعنى؛ لأن قوله: ﴿سَمُّوهُمْ ﴾ معناه: أَلَهُمْ أسماء الخالقين. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾. وقيل: المعنى قل لهم: أتنبئون الله بباطن لا يعلمه. ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ يعلمه؟ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا: بظاهر يعلمـه فقل لهم: سموهم؛ فإذا سمـوهم اللاّت والعُزّى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً. وقيل: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ عطف على قوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ أي أفمن هو قائم، أم تنبئون الله بما لا يعلم؛ أي أنتم تدعـون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً؛ أفتنبئونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمـه وإنما خصّ الأرض بنفي الشـريك عنهـا وإن لم يكن له شـريك في غيـر الأرض لأنهم ادّعـوا له شركـاء في الأرض. ومـعنى. ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ : الذي أنزل الله على

(١، ٢) انظر الآيتين (١٤) من سورة البقرة ، (١٧٨) من آل عمران .

(٣) ذكره الطبري (١٣/ ١٦٢) عن ابن عباس من طريق العوفيين وقـد أسنده إلى الضحاك ولكن قال : فهو الله تعالى قائم علي كل نفس (ا . هـ) .

أنبيائه. وقال قَتَادة: معناه بباطل من القول[١]؛ ومنه قول الشاعر:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَها ولُحُومَهَا وذلك عارٌ يا بن رَيْطَةَ ظاهرُ

أي باطل. وقال الضّحاك: بكذب من القول[٢]. ويحتمل خامساً: أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام: أتخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي دع هذا بل زين للذين كفروا مكرهم؛ قيل: استدراك على هذا الوجه، أي ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم. وقرأ ابن عباس ومجاهد: «بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ» مسمًّى الفاعل؛ وعلى قراءة الجماعة فالذي زَيّن للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان[٣]. ويجوز أن يسمى الكفر مكراً؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفراً. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي صدّهم الله؛ وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقون بالفتح؛ أي صدّوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧] وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقراءة الضم أيضاً حسنة في ﴿زُيِّنَ﴾ و﴿وَصُدُّوا﴾ لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القَدر، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ يحيى بن وثّاب وعلقمة «وصدّوا» بكسر الصاد؛ وكذلك. ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] بكسر الراء أيضاً على ما لم يسم فاعله؛ وأصلها صددوا ورددت، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي موفّق؛ وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾، فكذلك قوله: ﴿وَصُدُّوا﴾. ومعظم القراء يقفون على الدّال من غير الياء؛ وكذلك ﴿وَالٍ﴾ و﴿وَاقٍ﴾ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهاد، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين. وقرئ «فَمَا لَهُ مِنْ هَادِئ»، و«وَالِي» و«وَاقِي» بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالي وواقي بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف؛ فردّت الياء فصارْ هادي ووالي وواقي. وقال الخليل في نداء قاضٍ: يا قاضي بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو الداعي والمتعالي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي للمشركين الصادّين، بالقتل والسَّبْي والإسار، وغير ذلك من الأسقام والمصائب. ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشدّ؛ من قولك: شَقّ عليّ كَذا يَشُقّ. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و﴿مِّنَ﴾ زائدة.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

(١، ٢) الطبري (١٣/ ١٦٤) في تفسيره.

(٣) ضعف الرازي في تفسيره (١٨/ ٥٨) هذا القول، وقال: هو ضعيف لوجوه: الأول: لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الإنس فالمزين في قلب ذلك الشيطان إن كان شيطاناً آخر لزم التسلسل، ولو كان هو الله فقد زال السؤال. والثاني: أن يقال: القلوب لا يقدر عليها إلا الله. والثالث: أنا قد دللنا على أن الترجيح الداعي لا يحصل إلا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل. ا هـ.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع ﴿مَّثَلُ﴾ فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف؛ والتقدير: وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة. وقال الخليل: ارتفع بالابتداء وخبره ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ كقولك: قولي يقوم زيد؛ فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي الصفة العليا؛ وأنكره أبو علي وقال: لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنما معناه الشبه؛ ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبهك؛ قال: ويفسد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مثلاً إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام: صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها. وقال الزجاج: مَثَّلَ الله عزّ وجلّ لنا ما غاب عنا بما نراه؛ والمعنى: مَثَلُ الجنّة جَنّةٌ تجري من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو عليّ فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنّة جنّة، فجعلت الجنة خبراً لم يستقم ذلك؛ لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث؛ والجنّة غير حَدَث؛ فلا يكون الأول الثاني. وقال الفرّاء: المثل مقحم للتأكيد؛ والمعنى: الجنّة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمثل؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي ليس هو كشيء. وقيل التقدير: صفة الجنة التي وعد المتقون صفة جنّة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾. وقيل معناه: شبه الجنة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدّة والخلود؛ قاله مقاتل. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخبر: «إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى»[1] وقد بيناه في «التذكرة». ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي وظلها كذلك؛ فحذف؛ أي ثمرها لا ينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الْجَهْمِيّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى. ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلاَم وسَلْمان، والذين جاؤوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد وابن زيد[2]. وعن مجاهد أيضاً أنهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم[3]. وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل، فلما أسلم

(١) هذا الخبر رواه ابن المبارك (١٤٨٩) عن أبي عبيدة عن مسروق وذكره المصنف في التذكرة (٢/ ٤٥٤) باب ما جاء في أشجار الجنة وفي ثمارها وهو صحيح إلى مسروق.

(٢، ٣) الطبري (١٣/ ١٦٧) في تفسيره.

عبد الله بن سَلاَم وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة؛ فسألوا النبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الـله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُـوا اللَّهَ أَوِ ادْعُـوا الرَّحْـمَنَ أَيًّا مَّـا تَدْعُـوا فَلَهُ الأَسْـمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فقـالت قريش: ما بـال محمـد يدعو إلى إله واحد فـأصبح اليوم يـدعو إلهين، الله والرحمن والله مـا نعرف الرحمن إلا رحمن اليـمامة، يعنون مُسَـيْلِمَة الكذّاب؛ فنزلت: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن؛ فأنزل الله[1] تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ . ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكة ومن لم يؤمن من اليـهود والنصارى والمجوس. وقيل: هم العـرب المتحزبون على النبي ﷺ[2]. وقيل: ومن أعداء المسلمين من ينكـر بعض ما في القرآن؛ لأن فيهم من كان يعـترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ قراءة الجـماعة بالنصـب عطفاً على ﴿أَعْبُدَ﴾. وقرأ أبو خـالد بالرفع على الاستـئناف أي أفرده بالعبـادة وحده لا شريك له، وأتبـرّأ عن المشركين، ومن قال: المسيـح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبـيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس. ﴿وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾ أي أرجع في أموري كلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أنزلنا عليك القـرآن فأنكره بعض الأحزاب كـذلك أنزلناه حكماً عـربياً؛ وإنما وصـفه بذلـك لأنه أنزله على محـمد ﷺ، وهو عـربيّ، فكذب الأحزاب بهـذا الحكم أيضاً. وقـيل نظم الآية: وكمـا أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كـذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عـربياً، أي بلسان العرب؛ ويريد بالحكم ما فـيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي أهواء المشركين في عبادة مـا دون الله، وفي التوجيه إلى غيـر الكعبة. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ناصر ينصرك. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه؛ والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قيـل: إن اليهـود عابوا على النبي ﷺ الأزواج، وعـيرته بذلك وقـالوا: ما نرى لـهذا الرجل همة إلا النّساء والنكاح، ولو كـان نبياً لشغله أمر النبـوّة عن النّساء؛ فأنزل الله هذه الآية[3]،

(١، ٢) فتح القدير (٣/ ١٢٢) البحر المحيط (٥/ ٣٩٦) .

(٣) ضعيف: ذكره الواحدي ص ٢٣٠ في أسباب النزول بلا سند .

وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ أي جعلناهم بشراً يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدلّ على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التَّبَتُّل، وهو ترك النكاح، وهذه سنّة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية، والسنّة واردة بمعناها؛ قال ﷺ: «تزوّجوا فإني مكاثر بكم الأمم»(١) الحديث. وقد تقدّم في «آل عمران» وقال: «من تزوج فقد استكمل نصف الدّين فليتقِ الله في النصف الثاني»(٢). ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الْخَصْلَتين اللتين ضَمن رسول الله ﷺ عليهما الجنة فقال: «من وقاه الله شر اثنتين وَلَجَ الجنّة ما بين لَحْيَيه وما بين رجليه»(٣) خرجه الموطأ وغيره. وفي صحيح البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخّر. فقال أحدهم: أمّا أنا فإني أُصلّي الليل أبداً، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج؛ فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأُفطر وأصلّي وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني»(٤). خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا أبْين. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ؛ ولو أجاز له ذلك لاْخْتَصَيْنَا،(٥) وقد تقدّم في «آل عمران» الحضّ على طلب الولد والرّدّ على من جهل ذلك. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبّي أن يخرج الله منّي من يكاثر به النبي ﷺ النبيّين يوم القيامة؛ وإني سمعته يقول: «عليكم بالأبكار فإنهنّ أعْذَب أفواهاً وأحسن أخلاقاً وأَنْتَق أرحاماً وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(٦) يعني بقوله: «أنتق أرحاماً» أقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمي بالأولاد رمياً. وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال: «لا» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»(٧). صححه أبو محمد عبد الحق وحَسْبُك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات ما

---

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) حسن : الطبراني في الأوسط عن أنس ، وحسنه الألباني (٦١٤٨) في صحيح الجامع .

(٣) مرسل وله سند موصول : ومالك (٢/ ٩٨٧) في الموطأ عن عطاء بن يسار مرسلاً ، ورواه البخاري (٦٤٧٤) في الرقاق عن سهل بن سعد وفي الدر عنه بنحوه.

(٤) صحيح : البخاري (٥٠٦٣) في النكاح ، مسلم (١٤٠١/ ٥) وفي النكاح عن أنس رضي الله عنه .

(٥) صحيح : البخاري (٥٠٧٤) في النكاح ، مسلم (١٤٠٢) في النكاح.

(٦) حسن : ابن ماجه (١٨٦١) في النكاح بدون قصة عمر رضي الله عنه وحسنه الألباني هناك.

(٧) حسن : أبو داود (٢٠٥٠) في النكاح وحسنه الألباني هناك ، النسائي (٥٣٤٢) في الكبرى .

تقدّم ذكـره في هذه السورة فأنزل الله ذلـك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومـعناه النفي؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمر قضاه الله كـتاب عند الله؛ قاله الحسن. وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضّحاك؛ أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤقت، ووقت معلوم؛ نظيره. ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]؛ بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجل كتـاب. وقيل: المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمـر مقدّر لا تقف عليه الملائكة. وذكر الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصـول» عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: لما ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء رأى الجَبَّارُ في إصبعه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قـال: شيء من حُليّ الرجـال، قال: فـهل عليه شيء من أسـمائي مكتـوب أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به. ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء؛ أي يؤخره إلى وقته؛ يقال: محوت الكتاب محواً، أي أذهبت أثره. ﴿وَيُثْبِتُ﴾ أي ويثبته؛ كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي والذاكرات الله.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتـخفيف، وشَدّد الباقون؛ وهي قراءة ابن عباس، واختيـار أبي حاتم وأبي عبيد لكثرة من قـرأ بها؛ لقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال ابن عمر: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت»(١). وقال ابن عباس: يمحـو الله ما يشاء ويثبت إلا أشـياء؛ الخَلق والخُلُق والأجل والرزق والسعـادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أمّ الكتاب، يمحـو الله منهما ما يشاء ويثبت(٢). ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الذي لا يتغيّر منه شيء. قال القُـشَيْريّ: وقيل السعادة والشقاوة والخَلق والخُلُق والرزق لا تتغـير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكّم.

قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا يروى معناه عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وابن مسعود وأبي وائل وكعب الأحـبار وغيرهم، وهو قول الْكَلْبِيّ. وعن أبي عثمان النَّهْدِيّ أن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيهـا، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في

---

(١) ضعيف: الهيثـمي (٧/ ٤٣) في المجمع وعزاه للطبراني وقال: فيه محمد بن جـابر اليمامي وهو: ضعيف من غير تعمد كذب.

(٢) محتمل للتحـسين: عبد الرزاق (٢/ ٣٣٨) اللالكائي (٣/ ٩٧٤) والطبري (١٣/ ١٦٨) كلهم من طريق ابن أبي ليلى وهو صدوق سيئ الحفظ.

السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعندك أمّ الكتاب[١]. وكان أبو وائل يكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامح واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب[٢]. وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية فأبدلها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب[٣]. وقد تقدّم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من سرّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليَصِلْ رَحِمَه»[٤]. ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحَبَّ»[٥] فذكره بلفظه سواء؛ وفيه تأويلان: أحدهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت. والآخر: يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ؛ والذي في علم الله ثابت لا تبدّل له، كما قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وقيل لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحبّ أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله ولْيَصِلْ رَحِمَه» كيف يزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني يعني المسمى عنده من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البَرْزَخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأجل في علمه السابق امتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٤] فتوافق الخبر[٦] والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجَل على ظاهر اللفظ، في اختيار حبر الأمة، والله أعلم. وقال مجاهد: يُحكم الله أمر السَّنَة في رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه. وقال الضّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس[٧]. وقال الكَلْبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي ﷺ[٨]. ثم سئل الكَلْبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت

---

(١) حسن : الطبري (١٣/ ٧٠) واللالكائي (٤/ ١٢٠٦) في شرح أصول الاعتقاد .

(٢) حسن : الطبري (١٣/ ١٧١) من طريق شريك النخعي.

(٣) الطبري (١٣/ ١٧٠) .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) صحيح : البخاري (٢٠٦٧) في البيوع ، مسلم (٢٥٥٧/ ٥) في البر والصلة.

(٦) ذكره ابن كثير (٤/ ٣٢٩) في تفسيره من طريق العوفيين .

(٧) ضعيف .

(٨) موضوع : لأن ابن الكلبي كذاب.

وخرجت ونحوه، وهو صـادق، ويثبت ما فيه الثـواب والعقاب[١]. وقال قَتَادة وابن زيـد وسعيد بن جُبَيْر: يمحو الله مـا يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشـاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أمّ الكتـاب؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدويّ عن ابن عبـاس؛ قال النحاس: وحدّثنا بكر بن سـهل، قال: حدّثنا أبو صـالح، عن معاوية بن صالـح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول: يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: جملة ذلك عنده في أمّ الـكتاب، الناسخ والمنسوخ[٢]. وقال سعيد ابن جُبَير أيضاً: يغـفر ما يشاء يعني من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغـفره. وقال عكرمة: يمحو ما يشاء يعني بالتـوبة جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حـسنات قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية. وقال الحسن: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من جاء أجله، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ من لم يأت أجله. وقـال الحسن: يمحـو الآباء، ويثبت الأبناء. وعـنه أيضاً: يُنْسي الحـفظة من الذنوب ولا يُنْسَى. وقال السدّي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني: الشمس؛ بيانه قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم، يقبضها عند النوم، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه؛ بيانه قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآية. وقال عليّ بن أبي طالب يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١] ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] فيمـحو قَرْناً، ويثبت قرناً. وقـيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله؛ فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بمـعصيـة الله الزمان الطويل ثم يتـوب، فيـمحوه الله من ديوان الـسيئـات، ويثبـته في ديوان الحسـنات؛ ذكره الثـعلبيّ والماورديّ عن ابن عبـاس. وقيل: يمحـو الله ما يشـاء يعني الدنيا ويثـبت الآخرة. وقال قيس بن عُبَاد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان. وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيـرة خمسمائة عام، من درّة بيـضاء، لها دَفّتان من ياقـوتة حمراء للّه فيه كل يوم ثلاثمـائة وستون نظرة، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء[٣]. وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يَبقين مـن الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فـيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء»[٤]. والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء اللـه؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدّم أن من القـضاء ما يكون واقعـاً محتـوماً، وهو الثابت؛ ومنه مـا يكون مصروفاً بأسـباب، وهو الممحـوّ، والله أعلم. الغـزنويّ: وعندي أن ما في اللوح خـرج عن الغيب لإحـاطة بعض الملائكة؛

---

(١) الطبري (١٣/ ١٧٦ ، ١٧٧) في تفسيره .

(٢) منقطع : بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما: الطبري (١٣/ ١٧٥) في تفسيره .

(٣) حسن الإسناد ضعيف المتن : وقد سبق وانظر الطبري (١٣/ ١٧٤) .

(٤) ضعيف جدًا : الطبـري (١٣/ ١٧٤) في تفسيره من طريق محمد بن زيادة، وقـد ضعفه الذهبي (٢/ ٢٨٨) في الميزان وقال البخاري : منكر الحديث جدًا . وانظر علل ابن الجوزي (١/ ٣٨ ـ ٣٩) .

فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال؛ وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل ما كتب من الآجال وغيرها. وقيل: أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذي لا يبدّل ولا يغيـر. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر. وسئل ابن عباس عن أمّ الكتاب فقال: علْم الله ما هو خالق. وما خلْقُه عاملون؛ فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله، وعنه أنه الذِّكْر»[1] دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهذا يرجع معناه إلى الأوّل؛ وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحبار: أمّ الكتاب علم الله تعالى بما خَلَق وبما هو خالق[2].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ «ما» زائدة[3]، والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أي التبليغ؛ ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي الجزاء والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي نقصدها. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موت علمائها وصلحائها[4]. قال القُشَيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف؛ وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم؛ ولكن هذا القول بعيد، لأن مقصود الآية: أنا أريناهم النقصان في أمورهم، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى. وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن: هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين؛ وروي ذلك عن ابن عباس. وعنه أيضاً هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها؛ وعن مجاهد: نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكيع بن الجرّاح عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رَبَاح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهاب فقهائها وخيار أهلها[5]. قال أبو عمر بن عبد

---

(١) ضعيف: فيه ابن جريج عن ابن عباس وهو منقطع.

(٢) ضعيف: الطبري (١٣/ ١٧٥) في تفسيره من طريق سيار مولى معاوية وقيل: مولى خالد بن يزيد بن معاوية وفيه كلام ورواه عبد الرزاق (٢/ ٣٣٨) عن سلمان التيمي عن ابن عباس وهو منقطع.

(٣) لا شيء القرآن زائدًا أبدًا.

(٤) ضعيف جدًا إلى ابن عباس: الحاكم (٢/ ٣٥٠) في مستدركه وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: طلحة بن عمرو، قال أحمد: متروك.
قلت: ورواه الطبري (١٣/ ١٧٨) من طريق طلحة بن عمرو هذا.

(٥) ضعيف جدًا: فيه العلة السابقة.

البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جداً؛ تلقاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاه المهدويّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: موت الفقهاء والعلماء[1]؛ ومعروف في اللغة أن الطَّرف الكريمُ من كل شيء؛ وهذا خلاف ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس. وقال عكْرِمة والشّعبيّ: هو النقصان وقبض الأنفس. قال أحدهما: ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشَك. وقال الآخر: لضاق عليك حشٌّ تتبرز فيه[2]. قيل: المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم؛ والمعنى: أو لم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟ أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ذلك؛ وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج. وعن ابن عباس أيضاً أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها. وقيل: نقصها بِجَوْرِ وُلاَتها.

قلت: وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقد بَنَان؛ حسب ما تقدّم في «البقرة» بيانه.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضرّ إلا بإذنه. وقيل؛ فللَّه خير المكر؛ أي يجازيهم به. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه. «وسيعلم الكافر» كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. الباقون: «الْكُفَّارُ» على الجمع. وقيل: عنى به أبو جهل. ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو لِمن الثواب والعقاب في الدّار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قَتَادة: هم مشركو العرب؛ أي لست بنبيّ ولا رسول، وإنما أنت متقوِّل؛ أي لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ أي كفى بالله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدقي وكذبكم. ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب من آمن منهم في التفاسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلاَم وسَلْمان

(١) هذا والسابق عند الطبري (١٣/ ١٧٨).

(٢) ضعيف: الطبري (١٣/ ١٧٧) وفيه جهالة المحدث عن الشعبي.

الفارسيّ وتميم الداريّ والنجاشيّ وأصحابه [١] قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَير. وروى الترمذيّ عن ابن أخي عبد الله بن سَلاَم قال: لما أريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سَلاَم فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نُصرتك؛ قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنك خارج خير لي من داخل؛ قال فخرج عبد الله بن سَلاَم إلى الناس فقال: أيها الناس إنه كان اسمي في الجاهلية فلان، فسماني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت فيّ: ﴿وشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠] ونزلت فيّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الحديث[٢]. وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة». وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جُبَيْر: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ؟ قال: هو عبد الله بن سَلاَم.

قلت: وكيف يكون عبد الله بن سَلاَم وهذه السورة مكية وابن سَلاَم ما أسلم إلا بالمدينة؟ ذكره الثعلبي. وقال القُشَيري: وقال ابن جُبَير السورة مكية وابن سَلاَم أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سَلاَم؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول ابن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضحّاك: هو الله تعالى؛ وكانوا يقرؤون «ومن عِنده عِلْمُ الْكِتَاب» وينكرون على من يقول: هو عبد الله بن سَلاَم وسَلْمان؛ لأنهم يَرَوْن أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قرأ: «ومِنْ عِنده علم الكتاب»؛ وإن كان في الرواية ضعف، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ ﷺ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك «ومِن عِنده» بكسر الميم والعين والدال «عُلم الكِتابُ» بضم العين ورفع الكتاب[٣]. وقال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلاَم فقال: إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية. وقيل: جميع المؤمنين، والله أعلم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: أما من قال: إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين: إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبي ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»[٤] وهو حديث باطل؛ النبيّ ﷺ مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسط، على قدر منازلهم في العلوم. وأما من قال: إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ١٨٠) ولعلنا نستغربه كما استغربه ابن كثير إذ السورة مكية وعبد الله وسلمان وتميم والنجاشي إنما أسلموا بالمدينة رضوان الله عليهم أجمعين. ولعل الأظهر من الأقوال: أنهم قوم من اليهود والنصارى وبه قال سعيد بن جبير رحمه الله.

(٢) ضعيف: الترمذي (٣٢٥٦) في المناقب وضعفه الألباني هناك.

(٣) منكر: سليمان بن أرقم هذا منكر الحديث، وقال أبو زرعة: ذاهب الحديث، وقال أبو حاتم منكر الحديث، وقال يحيى بن معين: ليس يساوي فلسًا انظر الجرح والتعديل (٤/ ١٠٠) لابن أبي حاتم.

(٤) باطل موضوع: تعقب الذهبي فيه الحاكم (٤٦٣٧، ٤٦٣٨) عن ابن عباس فقال: موضوع، وانظر ضعيف الجامع (١٣٢٢)، وقال الخطيب البغدادي: كذب لا أصل له، المقاصد الحسنة للسخاوي (ص ٩٧، ٩٨).

يَعْلَم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنبيّ ﷺ بصدقه.

قلت: فالكتـاب على هذا هو القرآن. وأما من قال: هو عـبد الله بن سَلاَم فعـوّل على حديث الترمذيّ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عـبد الله بن سَلاَم شيئاً ويتناول جمـيع المؤمنين لفظاً؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبـوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان. قال النحاس: وقول من قال: هو عبد الله بن سَـلاَم وغيره يحتمل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحت وعـرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمراً مؤكداً؛ والله أعلم بحقيقة ذلك.

obeikandl.com